

نشأت الدبلوماسية منذ أمد بعيد قديم قدم التاريخ الإنساني نفسه، وتعد جزءاً منه إن لم تكن عنصراً من العناصر الفاعلة في صناعته، لقد شهدت المجتمعات البدائية ومن بعدها الكيانات السياسية من خلال علاقاتها البينية أشكالاً مختلفة من المفاوضات، وتبادل الرسل فيما بينها من أجل وقف أو منع نشوب حرب (مفاوضات السلام) أو شنّها (تحالفات القتال). ولا تعني الصياغة السابقة وضع تعريف للدبلوماسية فهناك بطبيعة الحال العديد من التعريفات، إلا أنها تتفق تقريباً من حيث أن الدبلوماسية هي تعريف الأعمال بين الدول بالطرق السلمية، وإن كان ما ذهب إليه بيتر باربر Peter Barber من قول هو الأصوب حيث ذكر أنها "الإدارة السلمية للعلاقات الدولية"، إذا نحينا جانباً الدور الرئيس للدبلوماسية في الإعداد للحرب، ولا سيما تجميع الائتلافات وتضليل الأعداء والمحايدين والتي تتعادل بالكاد مع الإدارة السلمية.

ويمكن لنا الربط بين الشكّلين الذين تمارسهما الدبلوماسية سلماً وحرباً ومصير البشرية منذ بداية التاريخ، وذلك من خلال ما تراكم من وثائق وسجلات العمل الدبلوماسي عبر الحقب التاريخية، غير أن أقدم وثائق دبلوماسية وصلتنا هي تلك الرسائل التي عُثر عليها في مصر في سنة ١٨٨٧م في تل العمارنة، وهي عبارة عن ثلاثمائة وخمسون رسالة ترجع إلى منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وهي رسائل متبادلة بين بلاط الأسرة الثامنة عشر المصرية، ودول أخرى في الشرق الأدنى القديم، وتوضح مدى الترابط في تلك الفترة بين القوى الكبرى، وتعطي الدليل الواضح على وجود شبكة دبلوماسية واسعة النطاق ومتطورة، كما تبين مكانة وهيبة مصر. بيد أنه على الرغم من الإشارات المتكررة للأخوة وروابط المصاهرة، فإن الملوك لم يظهروا ميل كبير نحو حل المشاكل اعتماداً على المناقشة الدبلوماسية.

أيّ ما كان الأمر؛ فإن محاولة التأريخ للدبلوماسية عبر العصور من أجل تتبع التطورات التي طرأت عليها منذ نشأتها وحتى اليوم هي محاولة تفيد الباحث، أو المنخرط في سلك الدبلوماسية، أو الراغب في احترافها. ومثل تلك المحاولة أثمرت دراسات عدة منها ما كتبه جيرمي بلاك Jeremy Black "تاريخ الدبلوماسية" (A History of Diplomacy). وكذلك ما كتبه عن نشأة الدبلوماسية وممارستها (The Practice of Diplomacy: Its Evolution, Theory and Administration) كل من هاملتون Keith Hamilton ولانجهورن Richard Langhorne وغيرهم كثر.

غير أن حدثاً دبلوماسياً قد يساء فهمه أو قد يكون مقصوداً يمكنه أن يخرج بنا من دائرة تاريخ الدبلوماسية الدقيق إلى دائرة التأثير على مسار التاريخ ذلك التأثير الذي ينبغي معرفة مداه من خلال دراسات وأبحاث متزنة ورصينة، ومن هنا تأتي أهمية دراسة دور الدبلوماسية في صناعة التاريخ سلماً أم حرباً. ولا شك أن كثيراً من الوثائق التي خلفتها الدبلوماسية عبر مراحل التاريخ الإنساني، بالإضافة إلى دورها في مدنا بمعلومات توضح المسار التاريخي الذي سلكته الدبلوماسية ذاتها وكيف تطورت ممارستها وتعددت أشكالها، إنما يفيد قطعاً في بيان دورها في تاريخ الإنسانية، وهذا الميدان بحاجة إلى مزيد من الدراسات التاريخية.



بقلم  
أ.د. فتحي عبد العزيز